على هامش (دراسات عن المقدمة) :

تحامل ابن خلدون على العرب

للأستاذ محمد سليم الرشـــدان

— ٢ —

(في الفصل السابق من هذا البحث برهنت على أن دفاع الأستاذ الحصري بك عن ابن خلدون في تحامله على العرب (بكتابه دراسات عن المقدمة) لم تكن تؤيده أقوال ابن خلدون نفسه ، واستشهدت بنصوص (المقدمة) التي اعتمد عليها ، مثبتاً أن الاستمرار بتلاوة تلك النصوص ينطق بعكس ما يريده الحصري ، ويقوم حجة على أن ابن خلدون تعمد ذلك التحامل ، وأراده العرب في أعصارهم وبواديهم ... وها هنا أكمل التعليق على هامش تلك (الدراسات) ، مبيناً وجوه الرأي في ذلك التحامل وأسبابه المحتملة . فأقول :)

لعل سائلا يسأل ، ما سبب تحامل ابن خلدون على العرب بهذه الصورة التي لفتت أنظار الباحثين ، حتى من غير العرب ؟! فجعلت البعض يظنون في حقيقة نسبه شتى الظنون ، وجعلت البعض الآخر يتهمونه في قوميته . كما جعلت هذين الكاتبين ، وأعني بهما (بارون دوسلان الفرنسي) و (جودت باشا التركي) يتلمسان له وجه العذر بهذا التأويل الذي أولاه كلمة (العرب) عنده كما مر آنفاً .

فهل كان حقيقة دعياً في (نسبه) ، فهو يحمل في نفسه موجدة على العرب الذين هدموا مجد أسلافه — فيما إذا كانوا من غير العرب ! — وسلبوا حريتهم . فهو من أجل ذلك موتور ، وصاحب الترة كثيراً ما يجنح به الخطل ، ويميل مع الهوى كل الميل دون روية أو تبصر .

أم كان حقيقة متهماً في (قوميته) ، فهو من أجل هذا الانتماء والشذوذ ، يتحامل على العرب شر تحامل ، ويرميهم بهذه العيوب التي أحاطهم بها ، وينسب إليهم أسوأ الصفات ، وأية صفات أسوأ من هذا الذي وصف به العرب وبالغ في وصفه ؟! هذا ما نقف للإجابة عليه ، وأنا لموقف عسر شائك ، لا يخلو صاحبه من أن يتحكم به هواه ، أو يضل طريق الصواب في اجتهاده . على أنني سأحاول — جهد الطاقة — أن أتقي ذلك « بالشمال واليمين » وأن أقف عند حد الاعتدال فيما أعرض له .

فأقـــول :

إن اتهام ابن خلدون في وجه من الوجوه التي ذكرت ، والتي يمكن أن تفترض كذلك ، ليس بالأمر البسيط الهين . وإن ابن خلدون لو لم يكن له من الفضل إلا أنه المبتكر الفذ الذي سبق الأولين والآخرين من سلفه ، في استنباط فلسفة علم التاريخ وفلسفة علم الاجتماع لكفاه ذلك فخراً . وحسب هذا الذي تراوده نفسه أن يتهم ابن خلدون في أية ناحية (فكرية أو نفسية) ، أن يضع بين يديه شيئاً من أقوال عظماء الأجيال فيه ، في شتى العصور ومختلف الأمم . وحينذاك — بعد أن يعرف ابن خلدون حق المعرفة — يستطيع أن يتحدث عنه بالكيفية التي يطمئن إليها . وأن تلك الأقوال التي أثرت من كبار الباحثين في (ابن خلدون) لوافرة جمة يضيق منها الحصر . على أنني برغم ذلك استشهد بشيء منها تأييداً لما ذكرته من ذلك المؤرخ العالم الفيلسوف .

يقول (البارون فون كرايمر) المربي النمسوي ، في رسالته (ابن خلدون وتاريخه لحضارة الدول الإسلامية) أن ابن خلدون يؤرخ الحضارة الإسلامية وهو : « من بين المؤرخين المسلمين أول من خصص فصولاً ضافية للتحدث عن النظم السياسية وأنواع الحكم[1] ... » .

ويقول الأستاذ (تمبث) الإنجليزي ، وهو أحدث من درس ابن خلدون ونقده ما يأتي : « إذا وجب — مع بعض التحفظ — أن نعتبر ابن خلدون مؤرخاً للحضارة الإسلامية ، فيحسن أن نتدبر ما إذا لم يكن قصد ابن خلدون الحقيقي ، هو أن يقدم لنا أمثلة إيضاحية ، ومجموعة تبين لنا ما يعتبره موضوع التاريخ وجوهره ... ولقد كانت هذه الفكرة العظيمة المستنيرة في فهم التاريخ بأنه سجل لتطور الإنسان الاجتماعي مترتباً على العوامل الطبيعية ، وناشئاً من تأثير الوسط وتفاعل الفرد والجماعة ، خليقة بأن تجعل كتابه مفتتح عهد جديد[2] ... » .

(١ و٢) ابن خلدون حياته وتراثه لسان . طبعة أولى القاهرة ج ٢ ص ١٤٧ و١٤٨ و١٤٩ ثم ج ١ ص ١٣ ص ١ .

ويعتبر الأستاذ الهولندى (دى بور) ابن خلدون فيلسوفاً « ويضعه فى ثبت الفلاسفة المسلمين إلى جانب ابن سينا والفزالى وابن رشد وابن الطفيل ، وينوه بقيمة المنطق فى سوغ نظرياته . ويصفه بأنه مفكر متزن[1] ... » .

ويعتبره آخرون كثيرون فى مكانة لا تقل عن هذه المكانة التى وضعه فيها هؤلاء الباحثون . ويصرحون بذلك على مرأى ومسمع من أساطين العلم والفكر ، دون أن يجدوا من يعارض قولهم ، أو ينتقص قيمته من حيث الحقيقة ، أو يتهمهم بالمبالغة فى سرد هذه الحقيقة .

ونحن حين نعرف ابن خلدون عن هذا الطريق ، نقف حيال آثاره موقفاً لا يزايلنا معه أجلاله وإكباره ، وتقدير اللائق بمكانته العلمية الرفيعة ... على أنه من الجدير بنا فى هذا المقام إلا نمتهن رأينا وتفكيرنا ، فيصور لنا احترامنا لابن خلدون سقطاته التى وقع فيها حسنات كلها . وهيهات ! فالحق أبلج والباطل لجلج ، وأن الحقيقة التى لا ترتاب فى صحتها هى أن ابن خلدون قسا فى حكمه على العرب قسوة بالغة ، وحكم عليهم حكما كان من القمين به وبمكانته العلمية أن يتبصر كثيراً فى إصداره والمجاهرة به .

وأما أنه أصدر هذا الحكم لأنه كان دعى النسب فى العرب ، فذلك أمر يحتاج البت فيه والجزم فى صحته إلى كثير من التدقيق . ولا أدرى هل كان ابن خلدون دعياً فى نسبه حقاً ؟! وأنى لنا معرفة ذلك معرفة لا تخالطها ريبة ، ولا يمازجها شك !!

يقول الربيل (أعنى ابن خلدون) من نفسه أن يرجع فى أصله إلى العرب اليمانية فى حضر موت ، « ونسبه إلى وائل بن حجر ، ويعتمد فى ذلك على رواية النسابة الأندلسى ابن حزم (توفى سنة ٤٥٧هـ) غير أنه يشك فى صحة هذه السلسلة ، ويعتقد أن أسماء منها قد سقطت . لأنه إذا كان خلدون هو جده الداخل إلى الأندلس عند الفتح ، فإن عشرة أجداد لا تكفى لقطع ستة قرون ونصف التى انقضت منذ الفتح حتى مولده . وفى رأيه أنه يجب لقطعها عشرون ، باعتبار ثلاثة أجداد لكل قرن . وأما نسب جده خلدون الداخل إلى الأندلس ، فهو كما روى ابن حزم أيضاً : خالد ، المعروف بخلدون بن عثمان بن هانى بن الخطاب بن كريب بن معد يكرب بن الحارث بن وائل بن حجر . فابن خلدون — طبقاً لهذه النسبة — سليل أصل من أعرق الأصول العربية اليمانية[2] ... » .

هذا ما يقوله ابن خلدون من نفسه مستق من تلخيص الأستاذ عبد الله عنان الحامى الذى يقول فى تعليقه على هذا النسب ما يلى : « ولكن هنالك ما يحمل على الشك فى صحة هذا النسب البعيد ، الذى يدونه ابن حزم لأول مرة فى القرن الخامس الهجرى . ويقوى هذا الشك لدينا ما نعرفه من ظروف الخصومة والتنافس بين العرب والبربر فى الأندلس ... وكانت العروبة فى الأندلس شرفاً يرغب فى الانتساب إليه ، لما كان لها من السيادة والنفوذ ، ولكن الشك كان يحيق بأنساب كثير من أهل العصبية والرياسة . بل لقد تطرق هذا الشك إلى أنساب زعماء الفاتحين أنفسهم ، فقيل عن طارق بن زياد أنه من البربر ، وقيل إنه فارسى من موالى العرب[3] ... » .

ويلتفت الأستاذ عنان بعد هذا التعليق إلى نسب ابن خلدون ، فيقارنه بإرمة ، مستقرئاً ذلك من الحقيقة الراهنة مع ابن خلدون . فيقول : « وهنالك أيضاً ما يبعث على التأمل فى تعلق ابن خلدون بهذه النسبة العربية ، وهو أنه فى مقدمته يضطرم نحو العرب بنزعة قوية من الخصومة والتحامل ، بينما نراه فى مكان آخر من تاريخه يمتدح البربر ويشيد بخلالهم وصفاتهم[4] » .

وهذا الذى يقوله الأستاذ عنان يكاد يقره الكثيرون ، وذلك حين يؤكدون : أن مثل هذه الخصومة البادية فى تحامل ابن خلدون على العرب ، لا يمكن أن تصدر من مؤرخ استهدف الحقيقة ، وزاملته النزاهة ، وصحبته الاستقامة . كما أنه من البعيد المستهجن أن لا تكون الأمة استطاعت أن تتغلب على دولتين من أقوى دول الأرض يومذاك ، وأن تشيد على أعقاب ملكهما ملكا تزدهر فيه الحضارة ويعم الرخاء ، ويستبحر العمران ، ويقوى على مقارعة الخطوب ومصاولة الأيام سنين طويلة وعصوراً مديدة .

(١) المصدر السابق .

(١) المصدر السابق .

(٢) ابن خلدون حياته وتراثه — ١ س ١٢ س ١١ ط أولى القاهرة .

(٣) ابن خلدون حياته وتراثه لعنان ج ١ س ١٤ س ٢ ذات الطبعة .

أجل ، إنه من المستهجن حقاً ألا يكون لهذه الأمة من المزايا ما يجعلها في نظر ابن خلدون في مصاف الفرس والرومان ، أو في مصاف (البربر) على الأقل !! الذين امتدحهم كثيراً ، وأطنب في مدحهم ، وذكرهم في كثير من المواطن التي كان للعرب ما يفوقها ، فضلاً عن أن يماثلها ويسير في نهجها . وأن ذلك عجيب يستفز الريبة !!

إذن فلم يبق أمامنا إلا أحد وجهين : إما أن ابن خلدون كان اتهامه في نسبه حقيقة راهنة ، حتى يدر على لسانه هذا الذي يدر من الشك في ترتيب ذلك النسب ، ثم هو يدعيه ويتظاهر به ، حرصاً على مكانته لدى الملوك والأمراء ، إذ كانت النوبة — كما يذكر الرواة — « شرفاً يرغب في الانتساب إليه » . إلا أنه يثم عليه قلمه ، ويكشفه تعصبه ، فإذا هو عدو في ثياب صديق ، وإذا هو يحمل شنيعين :

أولاهما : هذا العداء الموروث الذي كانت تنطوي عليه نفوس الأقوام المختلفة من دعاة الشعوبية في شتى الأقطار التي دخلها العرب فزاة فاتحين .

وأخراهما : هذا الحقد المرير الذي يضطرم في دخيلة نفسه ، كلما الناء محمولاً على أن يتظاهر بالانتساب إلى غير أهله ، حرصاً على مكانته بين الناس !

ومن جراء هذه وتلك يتبرى ملتمساً الثالب في كل باب ، ومقتنصاً للمعايب من كل سبيل ، ومنقباً عن أسباب الخيبة والفشل وانتقاض العمران ، ليلبس ذلك كله للعرب ويسنده إليهم ، ويلحقه بهم غير مستنكف ولا متورع .

وإما أن يكون ابن خلدون على النقيض من ذلك ، أي أنه عربي محض ، وأن تحامله على العرب كان وليد تأثره بأوضاع شخصية ، وظروف خاصة أحاطت به في شتى أطوار حياته وتشتت بها شمله ، وتغرب عن بلده ، وقاسى من العناء والمشقة الدسائس وحسد الحاسدين ، ما جعله يسيء الظن بأقرب المقربين إليه ، فيعيد هذا الفساد الخلق إلى نقص موروث ، تناقله الأبناء عن الآباء .

أضف إلى ذلك أنه كان يعيش في زمان كثرت فيه الدويلات ، وانتقست فيه ممالك الإسلام من أطرافها . فهذا (تيمور لنك) يكتسح الممالك الإسلامية من المشرق فتخرين يديه دولة أثر دولة — وهؤلاء الأسبان في الأندلس ، يدحرون المسلمين أمامهم ، وينتزعون منهم بلداً أثر بلد . وهنالك الثورات والقلاقل التي كانت لا تخبو نارها ، ولا يخمد أوارها . ثم هو لا يزال يشاهد من أهوالها ما يجعله ذاهلاً حائراً ، لا يدري إلى أية فئة ينحاز ، ولا إلى أي قبيل يلتجيء !!

وإذا ما التزم الحالة عاش عالة على سواه ، وبقي عملاً لا قيمة له ولا أثر ، وهيهات أن يرتضي ذلك ابن خلدون ، وهو سليل السادات وحفيد الأمجاد . إذن فلا بد من أن يخوض هذه المعمعة ، ويصيبه من شرورها شتى الألوان .

ومن ظن ممن يلاقي الحروب بأن لا يصاب فقد ظن عجزا

فابن خلدون إذن حين يحمل على العرب هذه الحملات ، إنما يتحدث عن عرب زمانه ، ومن يدري ، فلعلهم — شأن من يؤثرون الشقاق على الألفة ، ويظاهرون العدو للايقاع بأخوانهم !! — جديرون بهذا الذي نتهم به ، بل خليقون بأكثر منه — وهو حين يتجاوزهم إلى من سبق من أسلافهم لم يزد على أن يأخذ البريء بجريرة المسيء ، وتلك سقطة من جمح به هواه . ومن الرضا عن كل عيب كليلة كما أن من السخط تبدي المساويا

هذا ما من لي أن أقوله في تعليق على رأي ابن خلدون في العرب ، وذلك (على هامش دراسات الأستاذ الحصري) . ولعلي أميل في تعليل تحامله إلى الرأي الثاني وهو في يقيني أقرب إلى الحقيقة والواقع .

وهنا أختم كلامي بتعبير كان يكرره ابن خلدون كثيراً — وذلك على سبيل التيمن والبركة — فأقول : والله تعالى أعلم !

(زحلة — نزل إلياس ثابت) محمد سليم الرشدان

* ماجستير في الآداب والفلسفة العالية *

مصادر البحث :

١ — المقدمة (٨١٩ و ٨٢٠) من مجلة الرسالة الزاهرة .

٢ — مقدمة ابن خلدون — المطبعة التجارية الكبرى لمصطفى محمد . لم يذكر رقم الطبعة . ولم يذكر تاريخ الطبع !

٣ — دراسات عن مقدمة ابن خلدون تأليف الأستاذ ساطع الحصري بك . جزءان . الأول طبع سنة ١٩٤٣ في مطبعة الكشاف ببيروت . والثاني سنة ١٩٤٤ بالمطبعة عينها .

٥ — ابن خلدون — حياته وتراثه الفكري . تأليف الأستاذ عبد الله عنان المحامي . طبعة أولى دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٣ .

٦ — فلسفة ابن خلدون الاجتماعية . تأليف الدكتور طه حسين وصهره من الفرنسية الأستاذ محمد عبد الله عنان المحامي . الطبعة الأولى سنة ١٩٢٦ القاهرة .